و﴿أنه على كل شيء شهيد﴾ بدل منه تقديره أولم يكفهم أن ربك على كل شيء شهيد ومعناه أن هذا الموعود من إظهار آيات الله في الآفاق وفي أنفسهم سيرونه، ويشاهدونه فيتبينون عند ذلك أن القرآن تنزيل عالم الغيب الذي هو على كل شيء شهيد أي مطلع مهيمن يستوي عنده غيبه وشهادته فيكفيهم ذلك دليلاً على أنه حق وأنه من عنده ولو لم يكن كذلك لما قوي هذه القوة، ولما نصر حاملوه هذه النصرة.

أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌ ﴿٥٤﴾.

وقرئ: ﴿في مرية﴾ بالضم وهي الشك ﴿محيط﴾ عالم بجمل الأشياء وتفاصيلها وظواهرها وبواطنها فلا تخفى عليه خافية منهم وهو مجازيهم على كفرهم ومريتهم في لقاء ربهم عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة السجدة أعطاه الله بكل حرف عشر حسنات»[1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الشورى مكية

حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾.

قرأ ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهما حم سق.

كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾.

﴿كذلك يوحي إليك﴾ أي مثل ذلك الوحي أو مثل ذلك الكتاب إليك وإلى الرسل ﴿من قبلك الله﴾ يعني أن ما تضمنته هذه السورة من المعاني قد أوحى الله إليك مثله في غيرها من السور وأوحاه من قبلك إلى رسله على معنى: أن الله تعالى كرّر هذه المعاني في القرآن في جميع الكتب السماوية لما فيها من التنبيه البليغ واللطف العظيم لعباده من الأوّلين والآخرين ولم يقل أوحى إليك ولكن على لفظ المضارع ليدل على أن إيحاء مثله عادته، وقرئ: يوحى إليك على البناء للمفعول.

فإن قُلْتَ: فما رافع اسم الله على هذه القراءة **قُلْتُ:** ما دلّ عليه يوحى كأن قائلاً قال من الموحى فقيل الله كقراءة السلمى، وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم على البناء للمفعول ورفع شركائهم على معنى زينه لهم شركاؤهم.

فإن قُلْتَ: فما رافعه فيمن قرأ نوحي بالنون؟ **قُلْتُ:** يرتفع بالابتداء، والعزيز وما بعده أخبار والعزيز الحكيم صفتان والظرف خبر.

تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾.

قرئ: ﴿تكاد﴾ بالتاء والياء وينفطرن ويتفطرن وروى يونس عن أبي عمر، وقراءة غريبة تتفطرن بتاءين مع النون ونظيرها حرف نادر روى في نوادر ابن الأعرابي الإبل تشممن ومعناه يكدن ينفطرن من علو شأن الله وعظمته يدل عليه مجيئه بعد العلي العظيم وقيل من دعائهم له ولدًا كقوله تعالى: ﴿تكاد السموات يتفطرن منه﴾[2].

فإن قُلْتَ: لم قال من فوقهنّ؟ **قُلْتُ:** لأن أعظم الآيات وأدلها على الجلال والعظمة فوق السموات وهي العرش والكرسي وصفوف الملائكة المرتجة بالتسبيح والتقديس حول العرش وما لا يعلم كنهه إلا الله تعالى من آثار ملكوته العظمى، فلذلك قال: ﴿يتفطرن من فوقهنّ﴾ أي يبتدئ الانفطار من جهتهنّ الفوقانية أو لأن كلمة الكفر جاءت من الذين تحت السموات فكان القياس أن يقال: يتفطرن من تحتهن من الجهة التي جاءت منها الكلمة ولكنه بولغ في ذلك فجعلت مؤثرة في جهة الفوق كأنه قيل: يكدن يتفطرن من الجهة التي فوقهن دع الجهة التي تحتهن ونظيره في المبالغة قوله عزّ وعلا: يصب من فوق رؤسهم الحميم يصهر به ما في بطونهم فجعل الحميم مؤثرًا في أجزائهم الباطنة وقيل: من فوقهنّ من فوق الأرضين.

فإن قُلْتَ: كيف صح أن يستغفروا لمن في الأرض وفيهم الكفار أعداء الله وقد قال الله تعالى: ﴿أولئك عليهم لعنة الله والملائكة﴾[3] فكيف يكونون لاعنين مستغفرين لهم؟ **قُلْتُ:** قوله: ﴿لمن في الأرض﴾ يدل على جنس أهل الأرض وهذه الجنسية قائمة في كلهم وفي بعضهم فيجوز أن يراد به هذا وهذا قد دل الدليل على أن الملائكة لا يستغفرون إلا لأولياء الله وهم المؤمنون فما أراد الله إلا إياهم ألا ترى إلى قوله تعالى في سورة المؤمن ﴿ويستغفرون للذين آمنوا﴾[4] وحكايته عنهم ﴿فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك﴾[5] كيف وصفوا المستغفر لهم بما يستوجب به الاستغفار فما تركوا للذين لم يتوبوا من المصدّقين طمعًا في استغفارهم فكيف للكفرة ويحتمل أن يقصدوا بالاستغفار طلب الحلم والغفران في قوله تعالى: ﴿إنّ الله يمسك السموات والأرض أن تزولا﴾، إلى أن قال: ﴿إنه كان حليمًا غفورًا﴾[6] وقوله تعالى: ﴿إنّ ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم﴾[7] والمراد

(1) ذكره الثعلبي وابن مردويه، الزيلعي 3/230.
(2) سورة مريم، الآية: 90.
(3) سورة البقرة، الآية: 161.
(4) سورة غافر، الآية: 7.
(5) سورة غافر، الآية: 7.
(6) سورة فاطر، الآية: 41.
(7) سورة الشورى، الآية: 5.

الحلم عنهم وأن لا يعاجلهم بالانتقام فيكون عامًا.

فإن قُلْتَ: قد فسرت قوله تعالى: ﴿تكاد السمٰوات يتفطرن﴾ بتفسيرين فما وجه طباق ما بعده لهما؟ **قُلْتُ:** أما على أحدهما فكأنه قيل تكاد السموات يتفطرن هيبة من جلاله واحتشامًا من كبريائه والملائكة الذين هم ملء السبع الطباق وحافون حول العرش صفوفًا بعد صفوف يداومون خضوعًا لعظمته على عبادته وتسبيحه وتحميده ويستغفرون لمن في الأرض خوفًا عليهم من سطواته، وأما على الثاني فكأنه قيل يكدن يتفطرن من إقدام أهل الشرك على تلك الكلمة الشنعاء والملائكة يوحدون الله وينزهونه عما لا يجوز عليه من الصفات التي يضيفها إليه الجاهلون به حامدين له على ما أولاهم من ألطافه التي علم أنهم عندها يستعصمون مختارين غير ملجئين ويستغفرون لمؤمني أهل الأرض الذين تبرؤا من تلك الكلمة ومن أهلها أو يطلبون إلى ربهم أن يحلم عن أهل الأرض ولا يعاجلهم بالعقاب مع وجود ذلك فيهم لما عرفوا في ذلك من المصالح وحرصًا على نجاة الخلق وطمعًا في توبة الكفار والفساق منهم.

وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾.

﴿والذين اتخذوا من دونه أولياء﴾ جعلوا له شركاء وأندادًا **﴿الله حفيظ عليهم﴾** رقيب على أحوالهم وأعمالهم لا يفوته منها شيء، وهو محاسبهم عليها ومعاقبهم لا رقيب عليهم إلا هو وحده **﴿وما أنت﴾** يا محمد بموكل بهم ولا مفوض إليك أمرهم ولا قسرهم على الإيمان إنما أنت منذر فحسب.

وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾.

ومثل ذلك **﴿أوحينا إليك﴾**، وذلك إشارة إلى معنى الآية قبلها من أنّ الله تعالى هو الرقيب عليهم وما أنت برقيب عليهم ولكن نذير لهم لأنّ هذا المعنى كرّره الله في كتابه في مواضع جمة والكاف مفعول به لأوحينا و **﴿قرآنًا عربيًا﴾** حال من المفعول به أي أوحيناه إليك وهو قرآن عربي بين لابس فيه عليك لتفهم ما يقال لك ولا تتجاوز حدّ الإنذار، ويجوز أن يكون ذلك إشارة إلى مصدر أوحينا أي ومثل ذلك الإيحاء البين المفهم أوحينا إليك قرآنًا عربيًا بلسانك **﴿لتنذر﴾** يقال: أنذرته كذا وأنذرته بكذا وقد عدى الأوّل أعني **﴿لتنذر أمّ القرى﴾** إلى المفعول الأوّل والثاني، وهو قوله وتنذر يوم الجمع إلى المفعول الثاني **﴿أمّ القرى﴾** أهل أمّ القرى كقوله تعالى: ﴿واسئل القرية﴾ **﴿ومن حولها﴾** من العرب، وقرئ لينذر بالياء والفعل للقرآن **﴿يوم الجمع﴾** يوم القيامة لأنّ الخلائق تجمع فيه قال الله تعالى: ﴿يوم يجمعكم ليوم الجمع﴾[1] وقيل: يجمع بين الأرواح والأجساد وقيل: يجمع بين كل عامل وعمله **﴿لا ريب فيه﴾** اعتراض لا محل له، قرئ فريق وفريق بالرفع والنصب فالرفع على منهم فريق ومنهم فريق والضمير للمجموعين لأن المعنى: يوم جمع الخلائق والنصب على الحال منهم أي متفرّقين كقوله تعالى: ﴿ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرّقون﴾[2].

فإن قُلْتَ: كيف يكونون مجموعين متفرّقين في حالة واحدة؟ **قُلْتُ:** هم مجموعون في ذلك اليوم مع افتراقهم في داري البؤس والنعيم كما يجتمع الناس يوم الجمعة متفرّقين في مسجدين، وإن أريد بالجمع جمعهم في الموقف فالتفرّق على معنى مشارفتهم للتفرّق.

وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾.

﴿لجعلهم أمّة واحدة﴾ أي مؤمنين كلهم على القسر والإكراه كقوله تعالى: ﴿ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها﴾ وقوله تعالى: ﴿ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعًا﴾[3] والدليل على أنّ المعنى هو الإلجاء إلى الإيمان قوله: ﴿أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾[4] وقوله تعالى: ﴿أفأنت تكره﴾[5] بإدخال همزة الإنكار على المكره دون فعله دليل على أنّ الله وحده هو القادر على هذا الإكراه دون غيره والمعنى: ولو شاء ربك مشيئة قدرة لقسرهم جميعًا على الإيمان، ولكنه شاء مشيئة حكمة فكلفهم وبنى أمرهم على ما يختارون ليدخل المؤمنين في رحمته وهم المرادون بمن يشاء ألا ترى إلى وضعهم في مقابلة الظالمين ويترك الظالمين بغير ولي ولا نصير في عذابه.

أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾.

معنى الهمزة في **﴿أم﴾** الإنكار **﴿فالله هو الولي﴾** هو الذي يجب أن يتولى وحده ويعتقد أنه المولى والسيد فالفاء في قوله: **﴿فالله هو الولي﴾** جواب شرط مقدّر كأنه قيل بعد إنكار كل ولي سواه إن أرادوا وليًا بحق فالله هو الولي بالحق لا وليّ سواه **﴿وهو يحيي﴾** أي ومن شأن هذا الولي أنه يحي **﴿الموتى وهو على كل شيء قدير﴾** فهو الحقيق بأن يتخذ وليًا دون من لا يقدر على شيء.

وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾.

(1) سورة التغابن، الآية: 9.
(2) سورة الروم، الآية: 14.
(3) سورة يونس، الآية: 99.
(4) سورة يونس، الآية: 99.
(5) سورة يونس، الآية: 99.

﴿وما اختلفتم فيه من شيء﴾ حكاية قول رسول الله ﷺ للمؤمنين أي ما خالفكم فيه الكفار من أهل الكتاب والمشركين فاختلفتم أنتم وهم فيه من أمر من أمور الدين، فحكم ذلك المختلف فيه مفوض إلى الله تعالى، وهو إثابة المحقين فيه من المؤمنين ومعاقبة المبطلين ﴿ذلكم﴾ الحاكم بينكم هو ﴿الله ربي عليه توكلت﴾ في رد كيد أعداء الدين ﴿وإليه﴾ أرجع في كفاية شرهم وقيل: وما اختلفتم فيه وتنازعتم من شيء من الخصومات فتحاكموا فيه إلى رسول الله ﷺ ولا تؤثروا على حكومته حكومة غيره كقوله تعالى: ﴿فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى والرسول﴾[1] وقيل: وما اختلفتم فيه من تأويل آية واشتبه عليكم فارجعوا في بيانه إلى المحكم من كتاب الله والظاهر من سنة رسول الله ﷺ وما وقع بينكم الخلاف فيه من العلوم التي لا تتصل بتكليفكم ولا طريق لكم إلى علمه، فقولوا الله أعلم كمعرفة الروح قال الله تعالى: ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي﴾[2].

فإن قُلْتَ: هل يجوز حمله على اختلاف المجتهدين في أحكام الشريعة؟ **قُلْتُ:** لا، لأنّ الاجتهاد لا يجوز بحضرة رسول الله ﷺ.

فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾.

﴿فاطر السموات﴾ قرئ بالرفع والجر فالرفع على أنه أحد أخبار ذلكم أو خبر مبتدأ محذوف والجر على، فحكمه إلى الله فاطر السموات وذلك إلى أنيب اعتراض بين الصفة والموصوف ﴿جعل لكم﴾ خلق لكم ﴿من أنفسكم﴾ من جنسكم من الناس ﴿أزواجًا ومن الأنعام أزواجًا﴾ أي وخلق من الأنعام أزواجًا ومعناه وخلق للأنعام أيضًا من أنفسها أزواجًا ﴿يذرؤكم﴾ يكثركم يقال ذرأ الله الخلق بثهم وكثرهم والذرو والدر والذرء أخوات ﴿فيه﴾ في هذا التدبير وهو أن جعل للناس والأنعام أزواجًا حتى كان بين ذكورهم وإناثهم التوالد والتناسل والضمير في يذرؤكم يرجع إلى المخاطبين والأنعام مغلبًا فيه المخاطبون العقلاء على الغيب مما لا يعقل، وهي من الأحكام ذات العلنين.

فإن قُلْتَ: ما معنى يذرؤكم في هذا التدبير وهلا قيل يذرؤكم به! **قُلْتُ:** جعل هذا التدبير كالمتبع والمعدن للبث والتكثير الا تراك تقول للحيوان في خلق الأزواج تكثير كما قال تعالى: ﴿ولكم في القصاص حياة﴾[3] قالوا: مثلك لا يبخل فنفوا البخل عن مثله وهم يريدون نفيه عن ذاته قصدوا المبالغة في نلك، فسلكوا به طريق الكناية لأنهم إذا نفوه عمن يسدّ مسدّه وعمن هو على أخص أوصافه، فقد نفوه عنه ونظيره قولك للعربي: العرب لا تخفر الذمم كان أبلغ من قولك: أنت لا تخفر ومنه قولهم قد أيفعت لذاته وبلغت أترابه يريدون إيفاعه وبلوغه وفي حديث رقيقة بنت صيفي في سقيا عبد المطلب ألا وفيهم الطيب الطاهر لذاته[4] والقصد إلى طهارته وطيبه فإذا علم أنه من باب الكناية لم يقع فرق بين قوله ليس كالله شيء وبين قوله: ﴿ليس كمثله شيء﴾[5] إلا ما تعطيه الكناية من فائدتها وكأنهما عبارتان معتقبتان على معنى واحد: وهو نفي المماثلة عن ذاته.

لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾.

ونحوه قوله عز وجل: ﴿بل يداه مبسوطتان﴾[6] فإنّ معناه: بل هو جواد من غير تصوّر يد ولا بسط لها لأنها وقعت عبارة عن الجود لا يقصدون شيئًا آخر حتى أنهم استعملوها فيمن لا يد له فكذلك استعمل هذا فيمن له مثل ومن لا مثل له ولك أن تزعم أنّ كلمة التشبيه كرّرت للتاكيد كما كرّرها من قال: وصاليات ككما يؤثفين ومن قال، فأصبحت مثل كعصف مأكول، وقرئ ويقدّر ﴿إنه بكل شيء عليم﴾ فإذا علم أنّ الغنى خير للعبد أغناه وإلا أفقره.

شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾.

﴿شرع لكم من الدين﴾ دين نوح ومحمد ومن بينهما من الأنبياء ثم فسر المشروع الذي اشترك هؤلاء الأعلام من رسله فيه بقوله: ﴿أن أقيموا الدين ولا تتفرّقوا فيه﴾ والمراد إقامة دين الإسلام الذي هو توحيد الله وطاعته والإيمان برسله وكتبه وبيوم الجزاء وسائر ما يكون الرجل بإقامته مسلمًا ولم يرد الشرائع التي هي مصالح الأمم على حسب أحوالها فإنها مختلفة متفاوتة قال الله تعالى: ﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجًا﴾[7] ومحل أن أقيموا إما نصب بدل من مفعول شرع والمعطوفين عليه، وإما رفع على الاستئناف كأنه قيل وما ذلك المشروع فقيل هي إقامة الدين ونحوه قوله: تعلق أنّ هذه أمّتكم أمة واحدة ﴿كبر على المشركين﴾ عظم عليهم وشق عليهم ﴿ما تدعوهم إليه﴾ من إقامة دين الله والتوحيد ﴿يجتبي

(1) سورة النساء، الآية: 59.
(2) سورة الإسراء، الآية: 85.
(3) سورة البقرة، الآية: 179.
(4) رواه الطبراني في معجمه.
(5) سورة الشورى، الآية: 11.
(6) سورة المائدة، الآية: 64.
(7) سورة المائدة، الآية: 48.

﴿إليه﴾ يجتلب إليه ويجمع والضمير للدين بالتوفيق والتسديد **﴿من يشاء﴾** من ينفع فيهم توفيقه، ويجري عليهم لطفه.

وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوْرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ﴿١٤﴾.

﴿وما تفرّقوا﴾ يعني أهل الكتاب بعد أنبياءهم **﴿إلا من بعد﴾** أن علموا أنّ الفرقة ضلال وفساد وأمر متوعد عليه على ألسنة الأنبياء **﴿ولولا كلمة سبقت من ربك﴾** وهي عدة التأخير إلى يوم القيامة **﴿لقضي بينهم﴾** حين افترقوا لعظم ما افترقوا **﴿وإنّ الذين أورثوا الكتاب من بعدهم﴾** وهم أهل الكتاب الذين كانوا في عهد رسول الله ﷺ **﴿لفي شك﴾** من كتابهم لا يؤمنون به حق الإيمان وقيل كان الناس أمّة واحدة مؤمنين بعد أن أهلك الله أهل الأرض أجمعين بالطوفان، فلما مات الآباء اختلف الأبناء فيما بينهم وذلك حين بعث الله إليهم النبيين مبشرين ومنذرين وجاءهم العلم، وإنما اختلفوا للبغي بينهم وقيل وما تفرّق أهل الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بمبعث رسول الله ﷺ كقوله تعالى: ﴿وما تفرّق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة﴾[1] وإنّ الذين أورثوا الكتاب من بعدهم هم المشركون أورثوا القرآن من بعد ما أورث أهل الكتاب التوراة والإنجيل وقرىء ورّثوا وورثوا.

فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۡۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۡۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٥﴾.

﴿فلذلك﴾ فلأجل التفرق ولما حدث بسببه من تشعب الكفر شعبًا **﴿فادع﴾** إلى الاتفاق والائتلاف على الملة الحنيفية القديمة **﴿واستقم﴾** عليها على الدعوة إليها كما أمر الله **﴿ولا تتبع أهواءهم﴾** المختلفة الباطلة بما أنزل الله من كتاب أي كتاب صحّ أنّ الله أنزله يعني الإيمان بجميع الكتب المنزلة لأنّ المتفرقين آمنوا ببعض، وكفروا ببعض كقوله تعالى: ﴿ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض﴾[2] إلى قوله: ﴿أولئك هم الكافرون حقًا﴾[3] **﴿لأعدل بينكم﴾** في الحكم إذا تخاصمتم فتحاكمتم إليّ **﴿لا حجة بيننا وبينكم﴾** أي لا خصومة لأنّ الحق قد ظهر وصرتم محجوجين به فلا حاجة إلى المحاجة ومعناه: لا إيراد حجة بيننا لأنّ المتحاجّين يورد هذا حجته وهذا حجته **﴿الله يجمع بيننا﴾** يوم القيامة فيفصل بيننا وينتقم لنا منكم وهذه محاجزة ومتاركة بعد ظهور الحق وقيام الحجة والإلزام.

فإن قُلْتَ: كيف حوجزوا وقد فعل بهم بعد ذلك ما فعل من القتل وتخريب البيوت وقطع النخيل والإجلاء؟ **قُلْتُ:** المراد محاجزتهم في مواقف المقاولة لا المقاتلة.

وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ ﴿١٦﴾.

﴿يحاجون في الله﴾ يخاصمون في دينه **﴿من بعد﴾** ما استجاب له الناس ودخلوا في الإسلام ليردّوهم إلى دين الجاهلية كقوله تعالى: ﴿ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردّونكم من بعد إيمانكم كفارًا﴾[4] كان اليهود والنصارى يقولون للمؤمنين كتابًا قبل كتابكم ونبينا قبل نبيكم ونحن خير منكم وأولى بالحق وقيل من بعد ما استجاب الله لرسوله ونصره يوم بدر وأظهر دين الإسلام **﴿داحضة﴾** باطلة زالة.

ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ ﴿١٧﴾.

﴿أنزل الكتاب﴾ أي جنس الكتاب **﴿والميزان﴾** والعدل والتسوية، ومعنى إنزال العدل: أنه أنزله في كتبه المنزلة وقيل الذي يوزن به، بالحق ملتبسًا بالحق مقترنًا به بعيدًا من الباطل أو بالغرض الصحيح كما اقتضته الحكمة أو بالواجب من التحليل والتحريم وغير ذلك **﴿الساعة﴾** في تأويل البعث فلذلك قيل **﴿قريب﴾** أو لعل مجيء الساعة قريب.

فإن قُلْتَ: كيف يوفق ذكر اقتراب الساعة مع إنزال الكتاب والميزان؟ **قُلْتُ:** لأنّ الساعة يوم الحساب ووضع الموازين للقسط فكأنه قيل: أمركم الله بالعدل والتسوية والعمل بالشرائع قبل أن يفاجئكم اليوم الذي يحاسبكم فيه ويزن أعمالكم ويوفي لمن أوفى ويطفف لمن طفف.

يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾.

المماراة الملاجة لأنّ كل واحد منهما يمري ما عند صاحبه **﴿لفي ضلال بعيد﴾** من الحق لأنّ قيام الساعة غير مستبعد من قدرة الله ولدلالة الكتاب المعجز على أنها آتية لا ريب فيها ولشهادة العقول على أنه لا بدّ من دار الجزاء.

ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴿١٩﴾.

﴿لطيف بعباده﴾ برّ بليغ البرّ بهم قد توصل برّه إلى جميعهم وتوصل من كل واحد منهم إلى حيث لا يبلغه وهم أحد من كلياته وجزئياته.

---

(1) سورة البينة، الآية: 4.
(2) سورة النساء، الآية: 150.
(3) سورة النساء، الآية: 151.
(4) سورة البقرة، الآية: 109.

فإن قُلْتَ: فما معنى قوله: ﴿يرزق من يشاء﴾ بعد توصل برّه إلى جميعهم قُلْتُ: كلهم مبرورون لا يخلو أحد من برّه إلا أنّ البرّ أصناف وله أوصاف والقسمة بين العباد تتفاوت على حسب تفاوت قضايا الحكمة والتدبير فيطير لبعض العباد صنف من البر لم يطر مثله لآخر ويصيب هذا حظ له وصف ليس ذلك الوصف لحظ صاحبه فمن قسم له منهم ما لا يقسم للآخر فقد رزقه وهو الذي أراد بقوله تعالى: ﴿يرزق من يشاء﴾ كما يرزق أحد الأخوين ولدًا دون الآخر على أنه أصابه بنعمة أخرى لم يرزقها صاحب الولد ﴿وهو القويّ﴾ الباهر القدرة الغالب على كل شيء ﴿العزيز﴾ المنيع الذي لا يغلب.

مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾.

سمى ما يعمله العامل مما يبغي به الفائدة والزكاء حرثًا على المجاز، وفرّق بين عملي العاملين بأن من عمل للآخرة وفق في عمله وضوعفت حسناته ومن كان عمله للدنيا أعطى شيئًا منها لا ما يريده ويبتغيه، وهو رزقه الذي قسم له وفرغ منه وما له نصيب قط في الآخرة، ولم يذكر في معنى عامل الآخرة وله في الدنيا نصيب على أن رزقه المقسوم له واصل إليه لا محالة للاستهانة بذلك إلى جنب ما هو بصدده من زكاء عمله وفوزه في المآب.

أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾.

معنى الهمزة في ﴿أم﴾ التقرير والتقريع، وشركاؤهم شياطينهم الذين زينوا لهم الشرك وإنكار البعث والعمل للدنيا لأنهم لا يعلمون غيرها وهو الدين الذي شرعت لهم الشياطين، وتعالى الله عن الإذن فيه، والأمر به وقيل: شركاؤهم أوثانهم، وإنما أضيفت إليهم لأنهم متخذوها شركاء لله فتارة تضاف إليهم لهذه الملابسة، وتارة إلى الله ولما كانت سببًا لضلالتهم وافتتانهم جعلت شارعة لدين الكفر كما قال إبراهيم صلوات الله عليه: إنهنّ أضللن كثيرًا من الناس ﴿ولولا كلمة الفصل﴾ أي: القضاء السابق بتأجيل الجزاء أي: ولولا العدة بأنّ الفصل يكون يوم القيامة ﴿لقضي بينهم﴾ أي: بين الكافرين والمؤمنين أو بين المشركين وشركائهم، وقرأ مسلم بن جندب وأنّ الظالمين بالفتح عطفًا له على كلمة الفصل يعني ولولا كلمة الفصل وتقدير تعذيب الظالمين في الآخرة لقضى بينهم في الدنيا.

تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾.

﴿ترى الظالمين﴾ في الآخرة ﴿مشفقين﴾ خائفين خوفًا شديدًا أرق قلوبهم ﴿مما كسبوا﴾ من السيئات ﴿وهو واقع بهم﴾ يريد ووباله واقع بهم وواصل إليهم لا بدّ لهم منه أشفقوا أو لم يشفقوا، كأن روضة جنة المؤمن أطيب بقعة فيها وأنزهها ﴿عند ربهم﴾ منصوب بالظرف لا بيشاؤن.

ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾.

قرئ: ﴿يبشر﴾ من بشره ويبشر من أبشره ويبشر من بشره والأصل ذلك الثواب الذي يبشر الله به عباده فحذف الجار كقوله تعالى: ﴿واختار موسى قومه﴾[1] ثم حذف الراجع إلى الموصول كقوله تعالى: ﴿أهذا الذي بعث الله رسولاً﴾[2] أو ذلك التبشير الذي يبشره الله عباده، روي أنه اجتمع المشركون في مجمع لهم فقال بعضهم لبعض: أترون محمدًا يسأل على ما يتعاطاه أجرًا فنزلت الآية ﴿إلاّ المودّة في القربى﴾ يجوز أن يكون استثناء متصلاً أي: لا أسألكم أجرًا إلا هذا، وهو أن تودوا أهل قرابتي ولم يكن هذا أجرًا في الحقيقة؛ لأنّ قرابته قرابتهم، فكانت صلتهم لازمة لهم في المروءة ويجوز أن يكون منقطعًا أي: لا أسألكم أجرًا قط ولكنني أسألكم أن تودوا قرابتي الذين هم قرابتكم ولا تؤذوهم.

فإن قُلْتَ: هلا قيل إلا مودّة القربى أو إلا المودّة للقربى، ومعنى قوله: إلاّ المودّة في القربى! قُلْتُ: جعلوا مكانًا للمودّة ومقرًا لها كقولك لي: في آل فلان مودّة ولي فيهم هوى وحب شديد تريد أحبهم وهم مكان حبى ومحله، وليست في بصلة للمودّة كاللام إذا قلت إلا المودّة للقربى إنما هي متعلقة بمحذوف تعلق الظرف به في قولك المال في الكيس، وتقديره إلا المودّة ثابتة في القربى ومتمكنة فيها والقربى مصدر كالزلفى والبشرى بمعنى قرابة، والمراد في أهل القربى وروى أنها لما نزلت قيل: يا رسول الله من قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودّتهم قال: علي وفاطمة وابناهما[3]، ويدل عليه ما روي عن علي رضي الله عنه شكوت إلى رسول الله ﷺ حسد الناس لي فقال: أما ترضى أن تكون رابع أربعة أوّل من يدخل الجنة أنا وأنت والحسن والحسين وأزواجنا عن أيماننا وشمائلنا وذريتنا خلف أزواجنا[4]، وعن النبي ﷺ حرمت الجنة على من ظلم أهل

(1) سورة البقرة، الآية: 245.

(2) سورة الأنبياء، الآية: 18.

(3) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، سورة الشورى، باب: إلا=

= المودة في القربى (الحديث رقم: 4818).

(4) رواه الطبراني في معجمه.

بيتي وآذاني في عترتي ومن اصطنع صنيعة إلى أحد من ولد عبد المطلب، ولم يجازيه عليها فأنا أجازيه عليها غدًا إذا لقيني يوم القيامة[1] وروى أنّ الأنصار قالوا فعلنا وفعلنا كأنهم افتخروا فقال عباس أو ابن عباس رضي الله عنهما: لنا الفضل عليكم فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فأتاهم في مجالسهم فقال: يا معشر الأنصار ألم تكونوا أذلة فأعزكم الله بي قالوا: بلى يا رسول الله قال: ألم تكونوا ضلالاً فهداكم الله بي قالوا: بلى يا رسول الله قال: أفلا تجيبونني قالوا: ما نقول يا رسول الله، قال: ألا تقولون ألم يخرجك قومك فآويناك أو لم يكذبوك فصدقناك أو لم يخذلوك فنصرناك قال: فما زال يقول حتى جثوا على الركب وقالوا: أموالنا وما في أيدينا لله ولرسوله[2] فنزلت الآية وقال رسول الله ﷺ: من مات على حب آل محمد مات شهيدًا الا ومن مات على حب آل محمد مات مغفورًا له الا ومن مات على حب آل محمد مات تائبًا الا ومن مات على حب آل محمد مات مؤمنًا مستكمل الإيمان الا ومن مات على حب آل محمد بشره ملك الموت بالجنة، ثم منكر ونكير الا ومن مات على حب آل محمد يزف إلى الجنة كما تزف العروس إلى بيت زوجها الا ومن مات على حب آل محمد فتح له في قبره بابان إلى الجنة الا ومن مات على حب آل محمد جعل الله قبره مزار ملائكة الرحمة الا ومن مات على حب آل محمد مات على السنة والجماعة، الا ومن مات على بغض آل محمد جاء يوم القيامة مكتوب بين عينيه آيس من رحمة الله الا ومن مات على بغض آل محمد مات كافرًا الا ومن مات على بغض آل محمد لم يشم رائحة الجنة، وقيل: لم يكن بطن من بطون قريش الا وبين رسول الله ﷺ وبينهم قربى، فلما كذبوه وأبوا أن يبايعوه نزلت[3] والمعنى: إلا أن تودوني في القربى أي في حق القربى ومن أجلها كما تقول الحب في الله والبغض في الله بمعنى: في حقه ومن أجله يعني أنكم قومي وأحق من أجابني وأطاعني فإذ قد أبيتم ذلك فاحفظوا حق القربى، ولا تؤذوني ولا تهيجوا عليّ وقيل: أتت الأنصار رسول الله ﷺ بمال جمعوه وقالوا يا رسول الله: قد هدانا الله بك وأنت ابن أختنا وتعروك نوائب وحقوق ومالك سعة فاستعن بهذا على ما ينوبك فنزلت[4] وردّه وقيل: القربى التقرّب إلى الله تعالى أي: إلا أن تحبوا الله ورسوله في تقرّبكم إليه بالطاعة والعمل الصالح، وقرئ إلا المودّة في القربى **﴿ومن يقترف حسنة﴾** عن السدّي أنها المودّة في آل رسول الله ﷺ نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه ومودّته فيهم والظاهر العموم في أي حسنة كانت إلا أنها لما ذكرت عقيب ذكر المودّة في القربى دلّ ذلك على أنها تناولت المودّة تناولاً أوّليًا كان سائر الحسنات لها توابع. وقرئ يزد أي يزد الله وزيادة حسنها من جهة الله مضاعفتها كقوله تعالى: ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضًا حسنًا فيضاعفه له أضعافًا كثيرة﴾[5] وقرئ حسنى وهي مصدر كالبشرى، الشكور في صفة الله مجاز للاعتداد بالطاعة وتوفية ثوابها والتفضل على المثاب.

أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾.

﴿أم﴾ منقطعة ومعنى الهمزة فيه التوبيخ كأنه قيل: يتمالكون أن ينسبوا مثله إلى الافتراء، ثم إلى الافتراء على الله الذي هو أعظم الفرى وأفحشها **﴿فإن يشا الله يختم على قلبك﴾**، فإن يشأ الله يجعلك من المختوم على قلوبهم حتى تفتري عليه الكذب فإنه لا يجترئ على افتراء الكذب على الله إلا من كان في مثل حالهم، وهذا الأسلوب مؤدّاه استبعاد الافتراء من مثله وأنه في البعد مثل الشرك بالله، والدخول في جملة المختوم على قلوبهم ومثال هذا أن يخون بعض الأمناء فيقول لعل الله خذلني لعل الله أعمى قلبي وهو لا يريد إثبات الخذلان وعمى القلب، وإنما يريد استبعاد أن يخون مثله والتنبيه على أنه ركب من تخوينه أمر عظيم، ثم قال: ومن عادة الله أن يمحو الباطل ويثبت الحق **﴿بكلماته﴾** بوحيه أو بقضائه كقوله تعالى: ﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه﴾[6] يعني: لو كان مفتريًا كما تزعمون لكشف الله افتراءه ومحقه وقذف بالحق على باطله فدمغه ويجوز أن يكون عدة لرسول الله ﷺ بأنه يمحو الباطل الذي هم عليه من البهت والتكذيب ويثبت الحق الذي أنت عليه بالقرآن وبقضائه الذي لا مردّ له من نصرتك عليهم إنّ الله عليم بما في صدرك وصدورهم فيجري الأمر على حسب ذلك، وعن قتادة يختم على قلبك ينسك القرآن ويقطع عنك الوحي يعني: لو افترى على الله الكذب لفعل به ذلك، وقيل: يختم على قلبك يربط عليه بالصبر حتى لا يشق عليك أذاهم.

فإن قُلْتَ: إن كان قوله: ﴿ويمح الله الباطل﴾ كلامًا مبتدأ غير معطوف على يختم فما بال الواو ساقطة في الخط **قُلْتُ:** كما سقطت في قوله تعالى: ﴿ويدع الإنسان بالشر﴾[7] وقوله تعالى: ﴿سندع الزبانية﴾[8] على أنها مثبتة في بعض المصاحف يقال قبلت منه الشيء وقبلته عنه، فمعنى قبلته منه: أخذته منه وجعلته مبدأ قبولي ومنشاه ومعنى قبلته عنه: عزلته عنه وأبنته عنه.

---

(1) ذكره الثعلبي في تفسيره.

(2) رواه الطبري في تفسيره، ورواه الطبراني في معجمه الأوسط، وابن أبي حاتم في تفسيره، الزيلعي 3/237.

(3) ذكره الثعلبي في تفسيره، الزيلعي 3/238.

(4) قال الزيلعي غريب 3/239، وذكره الواحدي في أسباب النزول ص 210.

(5) سورة البقرة، الآية: 245.

(6) سورة الأنبياء، الآية: 18.

(7) سورة الإسراء، الآية: 11.

(8) سورة العلق، الآية: 18.

وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾.

والتوبة أن يرجع عن القبيح والإخلال بالواجب بالندم عليهما والعزم على أن لا يعاود؛ لأنّ المرجوع عنه قبيح وإخلال بالواجب، وإن كان فيه لعبد حق لم يكن بد من التفصي على طريقه وروى جابر أن أعرابيًا دخل مسجد رسول الله ﷺ وقال: اللهم إني أستغفرك وأتوب إليك وكبر، فلما فرغ من صلاته قال له علي رضي الله عنه: يا هذا إنّ سرعة اللسان بالاستغفار توبة الكذابين وتوبتك تحتاج إلى التوبة فقال يا أمير المؤمنين: وما التوبة قال: اسم يقع على ستة معان على الماضي من الذنوب الندامة، ولتضييع الفرائض الإعادة وردّ المظالم وإذابة النفس في الطاعة كما ربيتها في المعصية وإذاقة النفس مرارة الطاعة كما أذقتها حلاوة المعصية والبكاء بدل كل ضحك ضحكته ﴿**ويعفو عن السيآت**﴾ عن الكبائر إذا تيب عنها وعن الصغائر إذا اجتنبت الكبائر، ويعلم ما يفعلون قرئ بالتاء والياء أي: يعلمه فيثيب على حسناته ويعاقب على سيئاته.

وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾.

﴿**ويستجيب الذين آمنوا**﴾ أي يستجب لهم فحذف اللام كما حذف في قوله تعالى: ﴿**وإذا كالوهم**﴾ أي: يثيبهم على طاعتهم ويزيدهم على الثواب تفضلاً أو إذا دعوه استجاب دعاءهم وأعطاهم ما طلبوا وزادهم على مطلوبهم وقيل الاستجابة فعلهم أي: يستجيبون له بالطاعة إذا دعاهم إليها ﴿**ويزيدهم**﴾ هو ﴿**من فضله**﴾ على ثوابهم وعن سعيد بن جبير هذا من فعلهم يجيبونه إذا دعاهم، وعن إبراهيم بن أدهم أنه قيل له: ما بالنا ندعو فلا نجاب قال: لأنه دعاكم فلم تجيبوه، ثم قرأ والله يدعو إلى دار السلام ويستجيب الذين آمنوا.

۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾.

﴿**لبغوا**﴾ من البغي وهو الظلم أي لبغي هذا على ذاك وذاك على هذا؛ لأنّ الغنى مبطرة مأشرة وكفى بحال قارون عبرة ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: أخوف ما أخاف على أمّتي زهرة الدنيا وكثرتها ولبعض العرب[1]، وقد جعل الوسمي ينبت بيننا، وبين بني رومان نبعًا وشوحطًا يعني: أنهم أحيوا فحدّثوا أنفسهم بالبغي والتفاتن، أو من البغي وهو البذخ والكبر أي لتكبروا في الأرض وفعلوا ما يتبع الكبر من العلو فيها والفساد وقيل: نزلت في قوم من أهل الصفة تمنوا سعة الرزق والغنى قال خباب بن الأرت: فينا نزلت وذلك أنا نظرنا إلى أموال بني قريظة والنضير وبني قينقاع فتمنيناها ﴿**بقدر**﴾ بتقدير يقال: قدره قدرًا وقدرًا ﴿**خبير بصير**﴾ يعرف ما يؤل إليه أحوالهم فيقدّر لهم ما هو أصلح لهم وأقرب إلى جمع شملهم، فيفقر ويغني ويمنع ويعطي ويقبض ويبسط كما توجبه الحكمة الربانية ولو أغناهم جميعًا لبغوا ولو أفقرهم لهلكوا.

فإن قُلْتَ: قد نرى الناس يبغي بعضهم على بعض ومنهم مبسوط لهم ومنهم مقبوض عنهم، فإن كان المبسوط لهم يبغون فلم بسط لهم؟ فإن كان المقبوض عنهم يبغون فقد يكون البغي بدون البسط فلم شرطه؟ **قُلْتُ:** لا شبهة في أنّ البغي مع الفقر أقل ومع البسط أكثر وأغلب، وكلاهما سبب ظاهر للإقدام على البغي والإحجام عنه فلو عم البسط لغلب البغي حتى ينقلب الأمر إلى عكس ما عليه الآن.

وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾.

قرئ: ﴿**قنطوا**﴾ بفتح النون وكسرها ﴿**وينشر رحمته**﴾ أي: بركات الغيث ومنافعه وما يحصل به من الخصب، وعن عمر رضي الله عنه أنه قيل له: اشتدّ القحط وقنط الناس فقال: مطروا إذا[2] أراد هذه الآية ويجوز أن يريد رحمته في كل شيء كأنه قال: ينزل الرحمة التي هي الغيث وينشر غيرها من رحمته الواسعة ﴿**الولي**﴾ الذي يتولى عباده بإحسانه ﴿**الحميد**﴾ المحمود على ذلك يحمده أهل طاعته.

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾.

﴿**وما بث**﴾ يجوز أن يكون مرفوعًا ومجرورًا يحمل على المضاف إليه والمضاف.

فإن قُلْتَ: لم جاز ﴿**فيهما من دابة**﴾ والدواب في الأرض وحدها **قُلْتُ:** يجوز أن ينسب الشيء إلى جميع المذكور وإن كان ملتبسًا ببعضه كما يقال: بنو تميم فيهم شاعر مجيد أو شجاع بطل، وإنما هو في فخذ من أفخاذهم أو فصيلة من فصائلهم وبنو فلان فعلوا كذا، وإنما فعله نويس منهم ومنه قوله تعالى: ﴿**يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان**﴾ وإنما يخرج من الملح[3] ويجوز أن

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب: الزكاة، باب: الصدقة على اليتامى، (الحديث: 1465).
وأخرجه مسلم في كتاب: الزكاة، باب: تخوف ما يخرج من زهرة الدنيا، الحديث: (121 ـ 1052).

(2) رواه عبد الرزاق في تفسيره، وذكره الثعلبي، الزيلعي: 3/240.

(3) قال أحمد: إطلاق الدواب على الأناسي بعيد من عرف اللغة، فكيف في إطلاقه على الملائكة، والصواب والله أعلم هو الوجه الأوّل. وقد جاء مفسراً في غير ما آية، كقوله: ﴿إنّ في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار﴾، ثم قال: ﴿وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل=

يكون للملائكة عليهم السلام مشى مع الطيران، فيوصفوا بالدبيب كما يوصف به الأناسي ولا يبعد أن يخلق في السموات حيوانًا يمشي فيها مشى الأناسي على الأرض سبحان الذي خلق ما نعلم وما لا نعلم من أصناف الخلق، إذا يدخل على المضارع كما يدخل على الماضي قال الله تعالى: ﴿والليل إذا يغشى﴾ ومنه ﴿إذا يشاء﴾ وقال الشاعر:

وإذا ما أشاء أبعث منها ... آخر الليل ناشطًا مذعورًا

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾.

في مصاحف أهل العراق ﴿فبما كسبت﴾ بإثبات الفاء على تضمين ما معنى الشرط وفي مصاحف أهل المدينة بما كسبت بغير فاء على أنّ ما مبتدأة وبما كسبت خبرها من غير تضمين معنى الشرط الآية مخصوصة بالمجرمين[1]، ولا يمتنع أن يستوفي الله بعض عقاب المجرم ويعفو عن بعض فأمّا من لا جرم له كالأنبياء والأطفال والمجانين فهؤلاء إذا أصابهم شيء من ألم أو غيره فللعوض الموفى والمصلحة وعن النبي ﷺ ما من اختلاج عرق ولا خدش عود، ولا نكبة حجر إلا بذنب ولما يعفو الله عنه أكثر[2] وعن بعضهم من لم يعلم أن ما وصل إليه من الفتن والمصائب باكتسابه وأنّ ما عفا عنه مولاه أكثر كان قليل النظر في إحسان ربه إليه وعنه آخر العبد ملازم للجنايات في كل أوان وجناياته في طاعاته أكثر من جناياته في معاصيه؛ لأنّ جناية المعصية من وجه وجناية الطاعة من وجوه والله يطهر عبده من جناياته بانواع من المصائب ليخفف عنه أثقاله في القيامة ولولا عفوه ورحمته لهلك في أوّل خطوة، وعن علي رضي الله عنه وقد رفعه من عفي عنه في الدنيا عفي عنه في الآخرة ومن عوقب في الدنيا لم تثن عليه العقوبة في الآخرة[3]، وعنه رضي الله عنه هذه أرجى آية للمؤمنين في القرآن.

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾﴾.

﴿بمعجزين﴾ بفائتين ما قضى عليكم من المصائب ﴿من ولي﴾ من متول بالرحمة.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِي ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾﴾.

الجوار: السفن، وقرئ: ﴿الجوار﴾ ﴿كالاعلام﴾ كالجبال قالت الخنساء: كأنه علم في رأسه نار.

﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾﴾.

وقرئ: ﴿الرياح فيظللن﴾ بفتح اللام وكسرها من ظل يظل ويظل نحو ضل يضل ويضل ﴿رواكد﴾ ثوابت لا تجري ﴿على ظهره﴾ على ظهر البحر[4] ﴿لكل صبار﴾ على بلاء الله ﴿شكور﴾ لنعمائه وهما صفتا المؤمن المخلص فجعلهما كناية عنه وهو الذي وكل همته بالنظر في آيات الله فهو يستملي منها العبر.

﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿يوبقهن﴾ يهلكهن، والمعنى أنه: إن يشأ يبتلي المسافرين في البحر بإحدى بليتين أما أن يسكن الريح فيركد الجواري على متن البحر ويمنعهن من الجري وإما أن يرسل الريح عاصفة فيهلكن إغراقًا، بسبب ما كسبوا من الذنوب ﴿ويعف عن كثير﴾ منها.

فإن قُلْتَ: علام عطف ﴿يوبقهن﴾! **قُلْتُ:** على يسكن لأنّ المعنى إن يشأ يسكن الريح فيركدن أو يعصفها فيغرقن بعصفها.

فإن قُلْتَ: فما معنى إدخال العفو في حكم الإيباق حيث جزم جزمه؟ **قُلْتُ:** معناه، أو إن يشأ يهلك ناسًا وينج ناسًا على طريق العفو عنهم.

فإن قُلْتَ: فمن قرأ ويعفو **قُلْتُ:** قد استأنف الكلام.

﴿وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾﴾.

فإن قُلْتَ: فما وجوه القراآت الثلاث في ﴿ويعلم﴾ **قُلْتُ:**

دابة﴾، فخص هذا الأمر بالأرض، والله أعلم.

(1) قال أحمد: هذه الآية تنكسر عندها القدرية، ولا يمكنهم ترويج حيلة في صرفها عن مقتضى نصها، فإنهم حملوا قوله تعالى: ﴿ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ على التائب وهو غير ممكن لهم ههنا، فإنه قد أثبت التبعيض في العفو، ومحال عندهم أن يكون العفو هنا مقروناً بالتوبة، فإنه يلزم تبعيض التوبة أيضاً، وهي عندهم لا تتبعض، وكذلك نقل الإمام عن أبي هاشم وهو رأس الاعتزال، ﴿والذي تولى كبره منهم﴾، فلا محمل لها إلا الحق الذي لا مرية فيه، وهو مردّ العفو إلى مشيئة الله تعالى غير موقوف على التوبة، وقول الزمخشري: إنّ الآلام التي تصيب الأطفال والمجانين لها أعواض إنما يريد به وجوب العوض على الله تعالى على سياق معتقده، وقد أخطأ على الأصل والفرع؛ لأنّ المعتزلة وإن أخطأت في إيجاب العوض، فلم تقل بإيجابه في الأطفال والمجانين، ألا ترى أنّ القاضي أبا بكر الزمهم قبح إيلام = البهائم والأطفال والمجانين، فقال: لا أعراض لها وليس مترتباً على استحقاق سابق فيحسن، فإنما يتم إلزامه بموافقتهم له على أن لا أعواض لها.

(2) لم أقف عليه عند البيهقي في الشعب ولا عند عبد الرزاق.

(3) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الحدود، باب: الحد كفارة، (الحديث: 2604).

وأخرجه أحمد في المسند: 5/214.

وأخرجه الحاكم في المستدرك: 2/445.

(4) قال أحمد: وهم يقولون: إن الريح لم ترد في القرآن إلا عذاباً بخلاف الرياح، وهذه الآية تخرم الإطلاق، فإنّ الريح المذكورة هنا نعمة ورحمة إذ بواسطتها يسير الله السفن في البحر حتى لو سكنت لركدت السفن، ولا ينكر أن الغالب من ورودها مفردة ما ذكروه، وأما أطراده فلا. وما ورد في الحديث: «اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً» فلأجل الغالب في الإطلاق، والله أعلم.

أما الجزم فعلى ظاهر العطف وأما الرفع فعلى الاستئناف وأما النصب فللعطف على تعليل محذوف تقديره لينتقم منهم ﴿ويعلم الذين يجادلون﴾ ونحوه في العطف على التعليل المحذوف غير عزيز في القرآن منه قوله تعالى: ﴿ولنجعله آية للناس﴾[1] وقوله تعالى: ﴿وخلق الله السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت﴾[2] وأما قول الزجاج: النصب على إضمار أن لأنّ قبلها جزاء تقول ما تصنع أصنع مثله وأكرمك وإن شئت وأكرمك على وأنا أكرمك وإن شئت وأكرمك جزمًا ففيه نظر لما أورده سيبويه في كتابه قال: واعلم أنّ النصب بالفاء والواو في قوله: إن تأتني آتك وأعطيك ضعيف وهو نحو من قوله والحق بالحجاز فأستريحا فهذا يجوز، وليس بحدّ الكلام ولا وجهه إلا أنه في الجزاء صار أقوى قليلاً؛ لأنه ليس بواجب أنه يفعل إلا أن يكون من الأوّل فعل، فلما ضارع الذي لا يوجبه كالاستفهام، ونحوه أجازوا فيه هذا على ضعفه اهـ ولا يجوز أن تحمل القراءة المستفيضة على وجه ضعيف ليس بحدّ الكلام ولا وجهه ولو كانت من هذا الباب لما أخلى سيبويه منها كتابه وقد ذكر نظائرها من الآيات المشكلة.

فإن قُلْتَ: فكيف يصح المعنى على جزم ويعلم؟ **قُلْتُ:** كأنه قال وإن يشأ يجمع بين ثلاثة أمور هلاك قوم ونجاة قوم وتحذير آخرين ﴿من محيص﴾ من محيد عن عقابه.

﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

ما الأولى ضمنت معنى الشرط فجاءت الفاء في جوابها بخلاف الثانية، عن علي رضي الله عنه اجتمع لأبي بكر رضي الله عنه مال فتصدق به كله في سبيل الله والخير فلامه المسلمون وخطأه الكافرون فنزلت.

﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿والذين يجتنبون﴾ عطف على الذين آمنوا وكذلك ما بعده ومعنى ﴿كبائر الإثم﴾ الكبائر من هذا الجنس، وقرئ كبير الإثم، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنه كبير الإثم هو الشرك ﴿هم يغفرون﴾ أي: هم الأخصاء بالغفران في حال الغضب لا يغول الغضب أحلامهم كما يغول حلوم الناس والمجيء بهم وإيقاعه مبتدأ وإسناد يغفرون إليه لهذه الفائدة ومثله هم ينتصرون.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿والذين استجابوا لربهم﴾ نزلت في الأنصار دعاهم الله عز وجل للإيمان به وطاعته فاستجابوا له بأن آمنوا به وأطاعوه ﴿وأقاموا الصلوة﴾ وأتموا الصلوات الخمس، وكانوا قبل الإسلام وقبل مقدم رسول الله ﷺ المدينة إذا كان بهم أمر اجتمعوا وتشاوروا فأثنى الله عليهم أي: لا ينفردون برأي حتى يجتمعوا عليه، وعن الحسن ما تشاور قوم إلا هدوا لأرشد أمرهم[3]، والشورى مصدر كالفتيا بمعنى التشاور ومعنى قوله: ﴿وأمرهم شورى بينهم﴾ أي: ذو شورى وكذلك قولهم: ترك رسول الله ﷺ وعمر بن الخطاب رضي الله عنه الخلافة شورى.

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

هو أن يقتصروا في الانتصار على ما جعله الله لهم ولا يعتدوا، وعن النخعي أنه كان إذا قرأها قال: كانوا يكرهون أن يذلوا أنفسهم فيجترئ عليهم الفساق.

فإن قُلْتَ: أهم محمودون على الانتصار **قُلْتُ:** نعم لأنّ من أخذ حقه غير متعد حدّ الله وما أمر به فلم يسرف في القتل إن كان ولي دم أورد على سفيه محاماة على عرضه وردعًا له فهو مطيع وكل مطيع محمود.

﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

كلتا الفعلتين الأولى وجزاؤها سيئة لأنها تسوء من تنزل به قال الله تعالى: ﴿وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك﴾[4] يريد ما يسوءهم من المصائب والبلايا والمعنى: أنه يجب إذا قوبلت الإساءة أن تقابل بمثلها من غير زيادة فإذا قال: أخزاك الله قال أخزاك الله ﴿فمن عفا وأصلح﴾ بينه وبين خصمه بالعفو والإغضاء كما قال تعالى: ﴿فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾[5] ﴿فأجره على الله﴾ عدة مبهمة لا يقاس أمرها في العظم وقوله: ﴿إنه لا يحب الظالمين﴾ دلالة على أن الانتصار لا يكاد يؤمن فيه[6] تجاوز السيئة والاعتداء خصوصًا في حال الحرد والتهاب الحمية فربما كان المجازي من الظالمين وهو لا يشعر، وعن النبي ﷺ إذا كان يوم القيامة نادى مناد من كان له على الله أجر فليقم قال: فيقوم خلق فيقال لهم ما أجركم على الله، فيقولون نحن الذين عفونا عمن ظلمنا فيقال لهم ادخلوا الجنة بإذن الله[7].

---

(1) سورة مريم، الآية: 21.

(2) سورة الجاثية، الآية: 22.

(3) أخرجه البخاري في الأدب المفرد: 1/358، باب: المشورة، (حديث: 258).

(4) سورة النساء، الآية: 78.

(5) سورة فصلت، الآية: 34.

(6) قال أحمد: معنى حسن يجاب به عن قول القائل لم ذكر هذا عقب العفو، مع أن الانتصار ليس بظلم فيشفى غليل السائل، ويحصل منه على كل طائل.

(7) رواه أبو نعيم في الحلية: 8/53، وأخرجه البيهقي في الشعب، باب: في حسن الخلق فصل في ترك الغضب، الحديث: 8313.

﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾﴾.

﴿بعد ظلمه﴾ من إضافة المصدر إلى المفعول وتفسره قراءة من قرأ بعد ما ظلم ﴿فأولئك﴾ إشارة إلى معنى من دون لفظه ﴿ما عليهم من سبيل﴾ للمعاقب، ولا للعاتب والعائب.

﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿إنما السبيل على الذين يظلمون الناس﴾ يبتدئونهم بالظلم ﴿ويبغون في الأرض﴾ يتكبرون فيها ويعلون ويفسدون.

﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿ولمن صبر﴾ على الظلم والأذى ﴿وغفر﴾ ولم ينتصر وفوّض أمره إلى الله ﴿إن ذلك﴾ منه ﴿لمن عزم الأمور﴾ وحذف الراجع لأنه مفهوم كما حذف من قولهم السمن منوان بدرهم، ويحكى أن رجلاً سب رجلاً في مجلس الحسن رحمه الله فكان المسبوب يكظم ويعرق فيمسح العرق، ثم قام فتلا هذه الآية فقال الحسن عقلها والله وفهمها إذ ضيعها الجاهلون، وقالوا: العفو مندوب إليه، ثم الأمر قد ينعكس في بعض الأحوال فيرجع ترك العفو مندوبًا إليه وذلك إذا احتيج إلى كف زيادة البغي وقطع مادة الأذى، وعن النبي ﷺ ما يدل عليه وهو أن زينب أسمعت عائشة بحضرته وكان ينهاها فلا تنتهي فقال لعائشة: دونك فانتصري[1].

﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِّن بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿ومن يضلل الله﴾ ومن يخذل الله ﴿فما له من وليّ من بعده﴾ فليس له من ناصر يتولاه من بعد خذلانه.

﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَاءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿خاشعين﴾ متضائلين متقاصرين مما يلحقهم ﴿من الذل﴾ وقد يعلق من الذل بينظرون ويوقف على خاشعين ﴿ينظرون من طرف خفي﴾ أي يبتدئ نظرهم من تحريك لأجفانهم ضعيف خفي بمسارقة كما ترى المصبور ينظر إلى السيف، وهكذا نظر الناظر إلى المكاره لا يقدر أن يفتح أجفانه عليها ويملأ عينيه منها كما يفعل في نظره إلى المحاب، وقيل: يحشرون عميًا فلا ينظرون إلا بقلوبهم وذلك نظر من طرف خفي وفيه تعسف ﴿يوم القيامة﴾ إما أن يتعلق بخسر واو يكون قول المؤمنين: واقعًا في الدنيا وإما أن يتعلق بقال أي يقولون يوم القيامة إذا رأوهم على تلك الصفة.

﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿من الله﴾ من صلة لا مرد أي: لا يرده الله بعدما حكم به، أو من صلة يأتي أي: من قبل أن يأتي من الله يوم لا يقدر أحد على رده، والنكير الإنكار أي: مالكم من مخلص من العذاب ولا تقدرون أن تنكروا شيئًا مما افترقتموه ودوّن في صحائف أعمالكم.

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾﴾.

أراد بالإنسان الجمع لا الواحد لقوله: ﴿وإن تصبهم سيئة﴾ ولم يرد إلا المجرمين لأن إصابه السيئة بما قدّمت أيديهم إنما تستقيم فيهم. والرحمة النعمة من الصحة والغنى والأمن، والسيئة البلاء من المرض والفقر والمخاوف، والكفور البليغ الكفران ولم يقل، فإنه كفور ليسجل على أن هذا الجنس موسوم بكفران النعم كما قال: ﴿إنّ الإنسان لظلوم كفار﴾ ﴿إنّ الإنسان لربه لكنود﴾ والمعنى أنه يذكر البلاء وينسى النعم[2] ويغمطها.

﴿لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾﴾.

لما ذكر إذاقة الإنسان الرحمة وإصابته بضدّها أتبع ذلك أنّ له الملك، وأنه يقسم النعمة والبلاء كيف أراد ويهب لعباده من الأولاد ما تقتضيه مشيئته فيخص بعضًا بالإناث وبعضًا بالذكور وبعضًا بالصنفين جميعًا ويعقم آخرين فلا يهب لهم ولدًا قط.

فإن قُلْتَ: لم قدّم الإناث أوّلاً على الذكور مع تقدّمهم عليهنّ، ثم رجع فقدّمهم ولم عرف الذكور بعد ما نكر الإناث؟ **قُلْتُ:** لأنه ذكر البلاء في آخر الآية الأولى وكفران الإنسان بنسيانه الرحمة السابقة عنده، ثم عقبه بذكر ملكه ومشيئته وذكر قسمة الأولاد، فقدّم الإناث لأنّ سياق الكلام أنه فاعل ما يشاؤه لا ما يشاؤه الإنسان، فكان ذكر الإناث اللاتي من جملة ما لا يشاؤه الإنسان أهم والأهم واجب التقديم وَلِيَلِيَ الجنس الذي كانت العرب تعدّه بلاء ذكر

(1) أخرجه أحمد في المسند: 6/93.

(2) قال أحمد: وقد أغفل هذه النكتة بعينها في الآية التي قبل هذه، وهي قوله تعالى: ﴿وقال الذين آمنوا أن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا إنّ الظالمين في عذاب مقيم﴾.= = فوضع الظالمين موضع الضمير الذي كان من حقه أن يعود على اسم إن فيقال: ألا إنهم في عذاب مقيم، فأتى هذا الظاهر تسجيلاً عليهم بلسان ظلمهم.

البلاء وأَخَّرَ الذكور، فلما أخرهم لذلك تدارك تأخيرهم وهم أحقاء بالتقديم بتعريفهم؛ لأنّ التعريف تنويه وتشهير كأنه قال: ويهب لمن يشاء الفرسان الأعلام المذكورين الذين لا يخفون عليكم.

أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾.

ثم أعطى بعد ذلك لا الجنسين حقه من التقديم والتأخير وعرّف أن تقديمهنّ لم يكن لتقدّمهنّ، ولكن لمقتض آخر فقال: ﴿**ذكرانًا وإناثًا**﴾ كما قال: إنا خلقناكم من ذكر وأنثى فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى، وقيل: نزلت في الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه حيث وهب لشعيب ولوط إناثًا ولإبراهيم ذكور ولمحمد ذكورًا وإناثًا، وجعل يحيى وعيسى عقيمين ﴿**إنه عليم**﴾ بمصالح العباد ﴿**قدير**﴾ على تكوين ما يصلحهم.

۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾.

﴿**وما كان لبشر**﴾ وما صح لأحد من البشر ﴿**أن يكلمه الله إلا**﴾ على ثلاثة أوجه إما على طريق الوحي وهو الإلهام والقذف في القلب، أو المنام كما أوحى إلى أم موسى وإلى إبراهيم عليه السلام في ذبح ولده، وعن مجاهد أوحى الله الزبور إلى داود عليه السلام في صدره قال عبيد بن الأبرص:

وأوحى إليّ الله أن قد تأمروا ... بإبل أبي أوفى فقمت على رجل

أي ألهمني وقذف في قلبي وإما على أن يسمعه كلامه الذي يخلقه في بعض الأجرام من غير أن يبصر السامع من يكلمه لأنه في ذاته غير مرئي، وقوله: ﴿**من وراء حجاب**﴾ مثل أي: كما يكلم الملك المحتجب بعض خواصه وهو من وراء الحجاب فيسمع صوته ولا يرى شخصه وذلك كما كلم موسى، ويكلم الملائكة وأما على أن يرسل إليه رسولاً من الملائكة، فيوحى الملك إليه كما كلم الأنبياء غير موسى وقيل: وحيًا كما أوحى إلى الرسل بواسطة الملائكة ﴿**أو يرسل رسولاً**﴾ أي نبيًا كما كلم أمم الأنبياء على ألسنتهم ووحيًا وأن يرسل مصدران واقعان موقع الحال لأنّ أن يرسل في معنى إرسال ومن وراء حجاب ظرف واقع موقع الحال أيضًا كقوله تعالى: ﴿وعلى جنوبهم﴾[1] والتقدير وما صح أن يكلم أحدًا إلا موحيًا أو مسمعًا من وراء حجاب أو مرسلاً ويجوز أن يكون موحيًا موضوعًا موضع كلامًا لأنّ الوحي كلام خفي في سرعة كما تقول: لا أكلمه إلا جهرًا وإلا خفاتًا لأنّ الجهر والخفات ضربان من الكلام، وكذلك إرسالاً جعل الكلام على لسان الرسول بمنزلة الكلام بغير واسطة تقول قلت لفلان كذا، وإنما قاله وكيلك أو رسولك، وقوله: أو من وراء حجاب معناه أو إسماعًا من وراء حجاب ومن جعل وحيًا في معنى أن يوحي وعطف يرسل عليه على معنى: وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيًا أي: إلا بأن يوحى أو بأن يرسل فعليه أن يقدر قوله أو من وراء حجاب تقديرًا يطابقهما عليه نحو أو أن يسمع من وراء حجاب، وقرئ أو يرسل رسولاً فيوحى بالرفع على أو هو يرسل أو بمعنى مرسلاً عطفًا على وحيًا في معنى موحيًا، وروي أنّ اليهود قالت للنبي ﷺ: الا تكلم الله وتنظر إليه إن كنت نبيًا كما كلمه موسى ونظر إليه فإنا لن نؤمن لك حتى تفعل ذلك فقال: لم ينظر موسى إلى الله فنزلت[2] وعن عائشة رضي الله عنها من زعم أنّ محمدًا رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية، ثم قالت: أو لم تسمعوا ربكم يقول فتلت هذه الآية ﴿**إنه عليّ**﴾[3] عن صفات المخلوقين ﴿**حكيم**﴾ يجري أفعاله على موجب الحكمة فيكلم تارة بواسطة وأخرى بغير واسطة إما إلهامًا وإما خطابًا.

وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾.

﴿**روحًا من أمرنا**﴾ يريد ما أوحى إليه لأنّ الخلق يحيون به في دينهم كما يحي الجسد بالروح.

فإن قُلْتَ: قد علم أن رسول الله ﷺ ما كان يدري ما القرآن قبل نزوله عليه[4] فما معنى قوله: ﴿**ولا الإيمان**﴾ والأنبياء لا يجوز عليهم إذا عقلوا، وتمكنوا من النظر

---

(1) سورة آل عمران، الآية: 191.

(2) لم يخرجه الزيلعي.

(3) تقدم في سورة الأحزاب.

(4) قال أحمد: لما كان معتقد الزمخشري: أنّ الإيمان اسم التصديق مضافاً إليه كثير من الطاعات فعلاً وتركاً، حتى لا يتناول الموحد العاصي ولو بكبيرة واحدة اسم الإيمان، ولا يناله وعد المؤمنين، وتفطن لإمكان الاستدلال على صحة معتقده بهذه الآية عدها فرصة لينتهزها، وغنيمة ليحرزها، وأبعد الظن بإرادة مذهب أهل السنة على صورة السؤال ليجيب عنه بمقتضى معتقده، فكأنه يقول: لو كان الإيمان وهو مجرد التوحيد والتصديق، كما تقول أهل السنة للزم أن ينفي عن النبي عليه الصلاة والسلام قبل المبعث بهذه الآية كونه مصدّقاً، ولما كان التصديق ثابتاً للنبي عليه الصلاة والسلام قبل البعث باتفاق الفريقين، لزم أن لا يكون = الإيمان المنفي في الآية عبارة عما اتفق على ثبوته، وحينئذ يتعين صرفه إلى مجموع أشياء من جملتها التصديق، ومن جملتها كثير من الطاعات التي لم تعلم إلا بالوحي، وحينئذ يستقيم نفيه قبل البعث، وهذا الذي طمع فيه يخرّط القتاد ولا يبلغ منه ما أراد، وذلك أنّ أهل السنة وإن قالوا: أنّ الإيمان هو التصديق خاصة حتى يتصف به كل موحد، وإن كان فاسقاً يخصون التصديق بالله وبرسوله، فالنبي عليه الصلاة والسلام مخاطب في الإيمان بالتصديق برسالة نفسه، كما أنّ أمّته مخاطبون بتصديقه ولا شكّ أنه قبل الوحي لم يكن يعلم أنه رسول الله، وما علم ذلك إلا بالوحي، وإذا كان الإيمان عند أهل السنة هو التصديق بالله ورسوله، ولم يكن هذا المجموع ثابتاً قبل الوحي، بل كان الثابت هو التصديق بالله تعالى خاصة استقام نفي الإيمان قبل الوحي على هذه الطريقة الواضحة، والله أعلم.

والاستدلال أن يخطئهم الإيمان بالله وتوحيده، ويجب أن يكونوا معصومين من ارتكاب الكبائر ومن الصغائر التي فيها تنفير قبل المبعث وبعده، فكيف لا يعصمون من الكفر؟ **قُلْتُ:** الإيمان اسم يتناول أشياء بعضها الطريق إليه العقل وبعضها الطريق إليه السمع، فعنى به ما الطريق إليه السمع دون العقل وذاك ما كان له فيه علم حتى كسبه بالوحي ألا ترى أنه قد فسر الإيمان في قوله تعالى: ﴿ما كان الله ليضيع إيمانكم﴾[1] بالصلاة لأنها بعض ما يتناوله الإيمان ﴿من نشاء من عبادنا﴾ من له لطف ومن لا لطف له فلا هداية تجدي عليه.

صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾.

﴿صراط الله﴾ بدل، وقرئ لتهدي أي: يهديك الله وقرئ لتدعوا عن رسول الله ﷺ من قرأ حم عسق كان ممن تصلي عليه الملائكة ويستغفرون له ويسترحمون له[2].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الزخرف مكية

حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾.

أقسم بالكتاب المبين وهو القرآن.

وجعل قوله: ﴿إنا جعلناه قرآنًا عربيًا﴾ جوابًا للقسم[3] وهو من الأيمان الحسنة البديعة لتناسب القسم والمقسم عليه وكونهما من واد واحد ونظيره قول أبي تمام: وثناياك إنها إغريض ﴿المبين﴾ البين للذين أنزل عليهم لأنه بلغتهم وأساليبهم وقيل: الواضح للمتدبرين وقيل: المبين الذي أبان طرق الهدى من طرق الضلالة وأبان ما تحتاج إليه الأمة في أبواب الديانة ﴿جعلناه﴾ بمعنى: صيرناه معدّى إلى مفعولين أو بمعنى: خلقناه معدّى إلى واحد كقوله تعالى: ﴿وجعل الظلمات والنور﴾ و﴿قرآنًا عربيًا﴾ حال، ولعلّ مستعار لمعنى الإرادة لتلاحظ معناها ومعنى الترجي أي: خلقناه عربيًا غير عجمي إرادة أن تعقله العرب ولئلا يقولوا لولا فصلت آياته.

وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾.

وقرئ أمّ الكتاب بالكسر وهو اللوح كقوله تعالى: ﴿بل هو قرآن مجيد * في لوح محفوظ﴾[4] سمي بأم الكتاب لأنه الأصل الذي أثبتت فيه الكتب منه تنقل وتستنسخ، على رفيع الشأن في الكتب لكونه معجزًا من بينها ﴿حكيم﴾ ذو حكمة بالغة أي: منزلته عند منزلة كتاب هما صفتاه وهو مثبت في أم الكتاب هكذا.

أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾.

﴿أفنضرب عنكم الذكر صفحًا﴾ بمعنى أفننحى عنكم الذكر ونذوده عنكم على سبيل المجاز من قولهم ضرب الغرائب عن الحوض ومنه قول الحجاج: ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل وقال طرفة:

اضرب عنك الهموم طارقها ضربك بالسيف قونس الفرس

والفاء للعطف على محذوف تقديره أنهملكم فنضرب عنكم الذكر إنكارًا لأن يكون الأمر على خلاف ما قدّم من إنزاله الكتاب وخلقه قرآنًا عربيًا ليعقلوه ويعملوا بمواجبه، وصفحًا على وجهين أما مصدره من صفح عنه إذا أعرض منتصب على أنه مفعول له على معنى: أفنعزل عنكم إنزال القرآن، وإلزام الحجة به إعراضاً عنكم وإمّا بمعنى: الجانب من قولهم نظر إليه بصفح وجهه وصفح وجهه على معنى أفننحيه عنكم جانبًا فينتصب على الظرف كما تقول: ضعه جانبًا وامش جانبًا وتعضده قراءة من قرأ صفحًا بالضم وفي هذه القراءة وجه آخر وهو أن يكون تخفيف صفح جمع صفوف، وينتصب على الحال أي: صافحين معرضين ﴿إن كنتم﴾ أي لأن كنتم وقرئ أن كنتم وإذ كنتم.

فإن قُلْتَ: كيف استقام معنى إن الشرطية وقد كانوا مسرفين على البتّ؟ **قُلْتُ:** هو من الشرط الذي ذكرت أنه يصدر عن المدل بصحة الأمر المتحقق لثبوته كما يقول الأجير: إن كنت عملت لك فوفني حقي وهو عالم بذلك ولكنه يخيل في كلامه أن تفريطك في الخروج عن الحق فعل من له شك في الاستحقاق مع وضوحه استجلالاله.

وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾.

﴿وما يأتيهم﴾ حكاية خال ماضيه مستمرّة أي: كانوا على نلك، وهذه تسلية لرسول الله ﷺ عن استهزاء قومه.

فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾.

الضمير في ﴿أشدّ منهم﴾ للقوم المسرفين لأنه صرف الخطاب عنهم إلى رسول الله ﷺ يخبره عنهم ﴿ومضى

---

(1) سورة البقرة، الآية: 143.

(2) ذكره الثعلبي، وابن مردويه في التفسير، الزيلعي: 3/246.

(3) قال أحمد: تنبيه حسن جداً ووجه التناسب فيه أنه أقسم بالقرآن، وإنما يقسم بعظيم، ثم جعل المقسم عليه تعظيم القرآن بانه قرآن عربي مرجوّ به أن يعقل به العالمون، أي: يتعقلوا آيات الله تعالى، فكان جواب القسم مصححاً للقسم، وكذلك أقسم أبو تمام بالثنايا، = وإنما يقسم الشعراء بمثل هذه الأشعار بأنه في غاية الحسن ثم جعل المقسم عليه كونها في نهاية الحسن لا أنها هي أغريض، وهو من أحسن تشبيهات الثنايا، فجعل المقسم عليه مصححاً للقسم، والله أعلم.

(4) سورة البروج، الآيتان: 21 ـ 22.